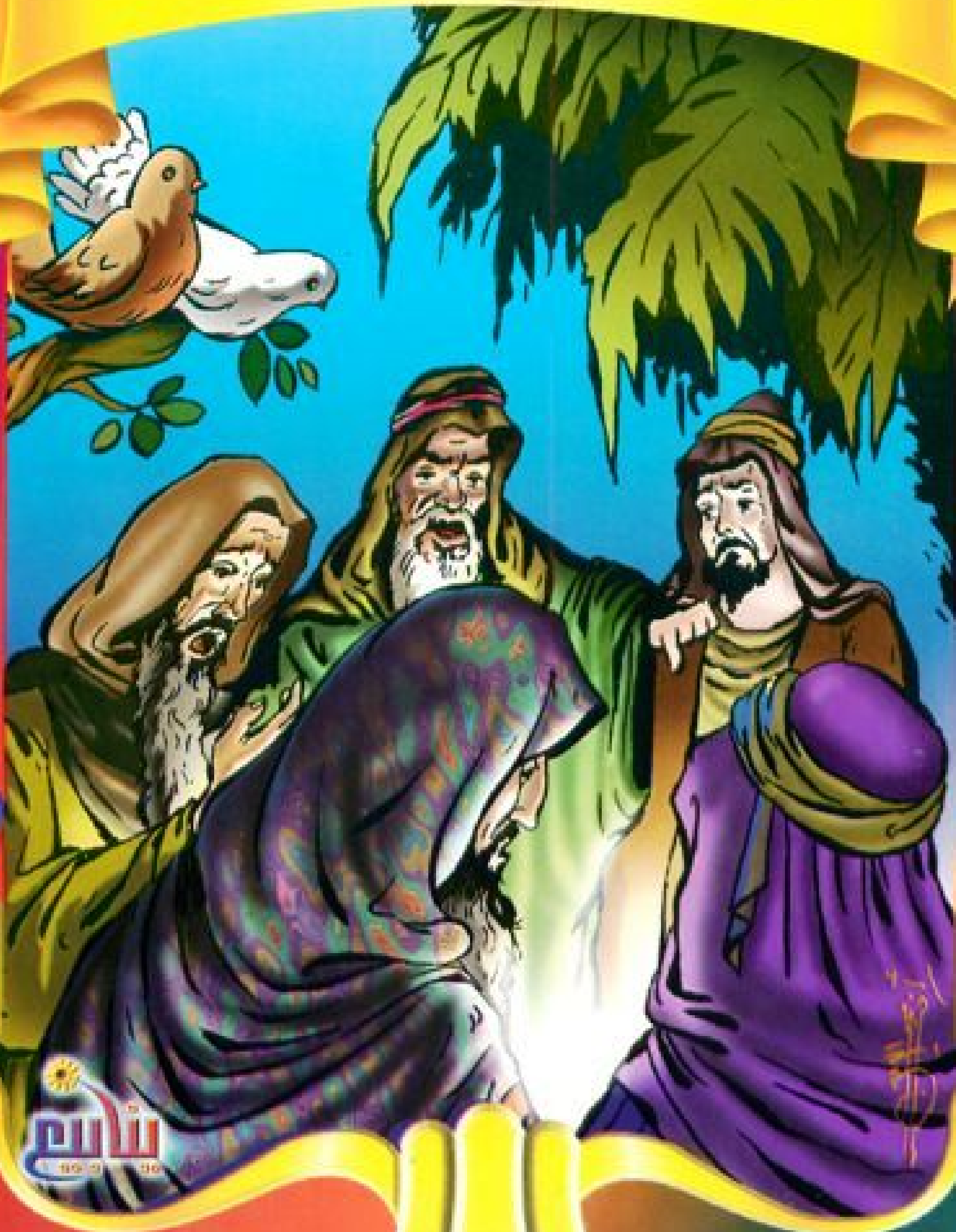
سلسلة قصص الأنبياء والمرسلين

عيسى عليه السلام

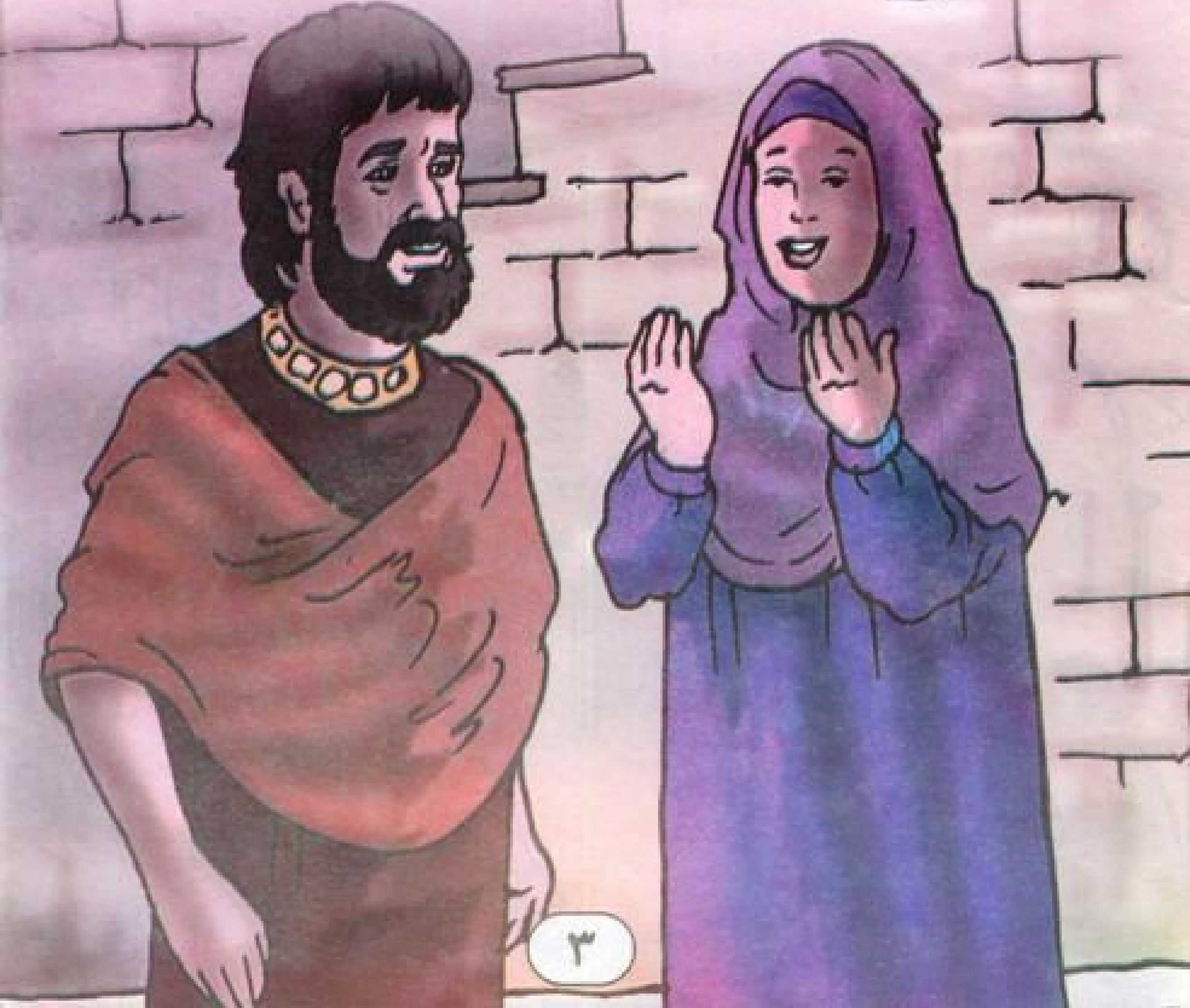


ينابيع

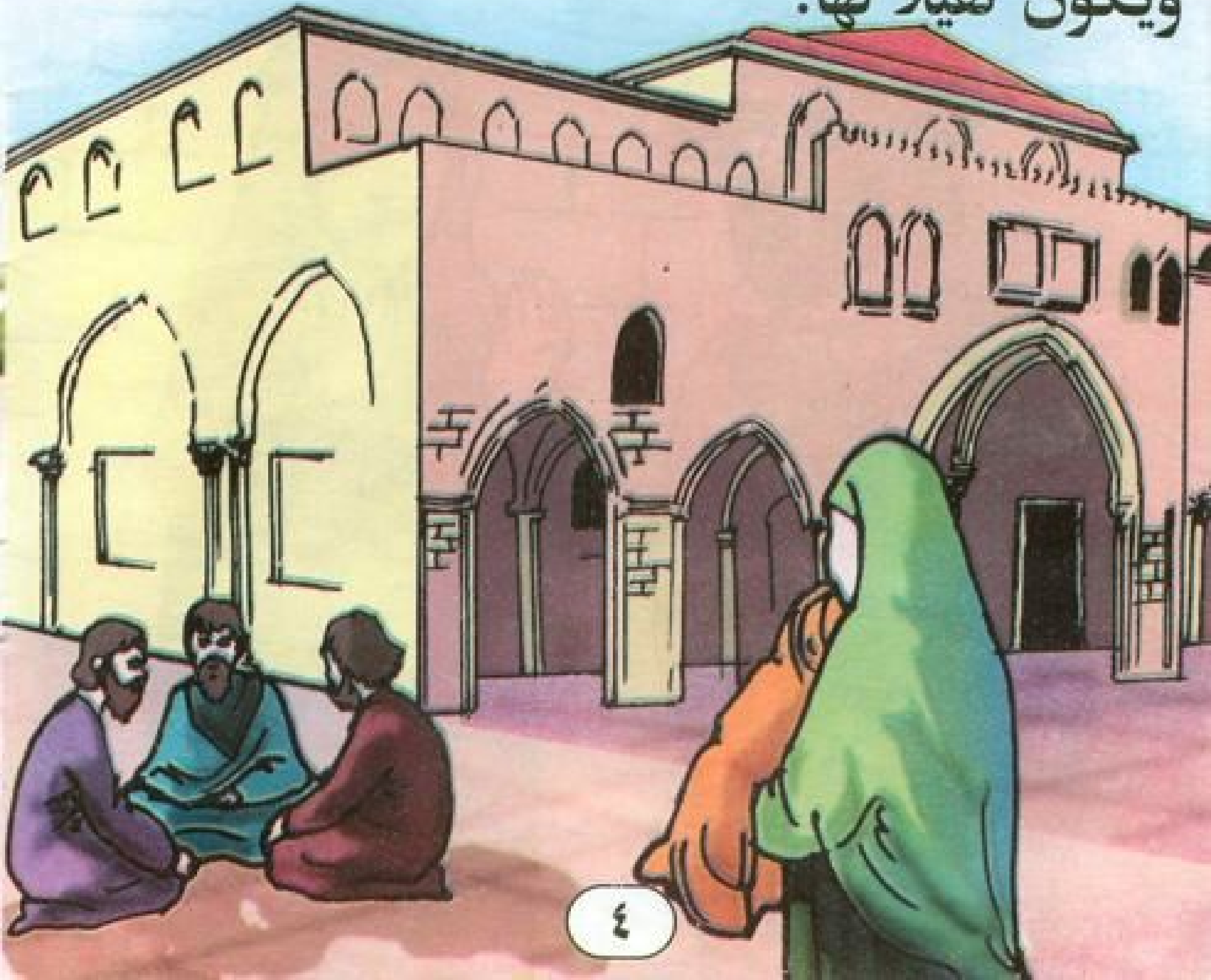


عاش عمران، وهو أحد الرجال الصالحين في زمن زكريا عليه السلام، مع زوجته، وكانت زوجة صالحة، ولكنها لم تكن تنجب، وفي يومٍ من الأيام رأت امرأة عمران طائرا مع فرخ له، فاشتهت الولد، ونذرت إن رزقها الله تعالى ولدا أن تجعله خادمًا لبيت المقدس، فاستجاب الله تعالى دعاءها، فحاضت، ثم حملت من زوجها.

ومرت الأيام وقد ظهرت علامات الحمل على امرأة عمران، وزوجها فَرِحٌ، ينتظر المولود الذي يتمناه، ومرت التسعة أشهر، ولما جاء موعد الوضع، وضعت امرأة عمران أنثى، وكانت تتمنى ولداً ليخدم بيت المقدس، فاتجهت إلى الله بالدعاء والحديث أنها ولدت أنثى، وسمتها مريم، ومع هذا، فقد وفت بما وعدت، وعزمت على أن تجعل مريم خادمة لبيت المقدس.



ومكثت مريم مع أمها عامين كاملين، هما مدة الرضاع، ثم لفتها في خرقة، وخرجت بها إلى المسجد الأقصى، وكان عبّاد بني إسرائيل هناك، فكل منهم تمنى أن يكون كفيل مريم، ومنهم زكريا عليه السلام زوج أخت امرأة عمران، ولكنهم طلبوا منه أن يقترعوا، وينظروا من الذي يأخذ مريم، ويكون كفيلاً لها.





وجاء وقت القرعة، ووضع كل منهم قلمه، ووضعوا الأقلام في مكان واحد، ثم أتوا بغلام صغير، ثم أمروه أن يأتي بقلم، فظهر قلم زكريا عليه السلام، فطلبوا أن يقترعوا مرة أخرى، فاتفقوا على أن يرمي كل منهم قلمه في النهر، والقلم الذي يجري خلاف جرية النهر يكفلها، فخرجت القرعة لزكريا، فكرروها مرة ثالثة، فخرجت القرعة له أيضا، فكفلها الله زكريا.

واتخذ زكريا عليه السلام لمريم مكانًا شريفًا في المسجد لا يدخل عليها أحد، فكانت تعمل في المسجد وقت نوبتها، ثم تقضي نهارها وليلها في طاعة الله، وظهرت لها كرامات عديدة، فقد كان زكريا عليه السلام يدخل عليها، فيجد عندها رزقًا، كأن يجد فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فيسألها: «يا مريم من أين لك هذا؟» فتقول: «هو من عند الله. إن الله يرزق من يشاء بغير حساب».



وظلت مريم على عبادتها، حتى كان يضرب بها المثل في العبادة لله تعالى، وقد كانت الملائكة تأتيها، تبشرها أن الله تعالى اصطفاها وطهرها وجعلها أفضل نساء العالمين، وطلبت الملائكة من مريم أن تكثر من العبادة والطاعة لله، لاختيار الله لها واصطفائها على نساء العالمين، فكانت مريم تزيد من عبادتها لله.



وفي يوم من الأيام وبينما مريم تصلي في المحراب، بشرتها الملائكة أن الله تعالى يبشرها بمولود لها، فتعجبت كيف تلد وهي غير متزوجة؟ فلم يقربها أحد، ولم يخطبها أحد، وماذا يقول الناس عنها؟ ولكن الملائكة طمأنتها وأعلمتها أن هذا أمر الله، وقد نفد أمر الله في قضائه، وأن الله تعالى لن يضيعها أبداً.

ولم يمر وقت طويل على مريم، حتى جاءها جبريل عليه السلام وهي في المحراب، وجاءها على هيئة رجل جميل، فخافت منه، وقالت له: إني أعوذ بالرحمن منك، إن كنت تقيا، فابعد عني.

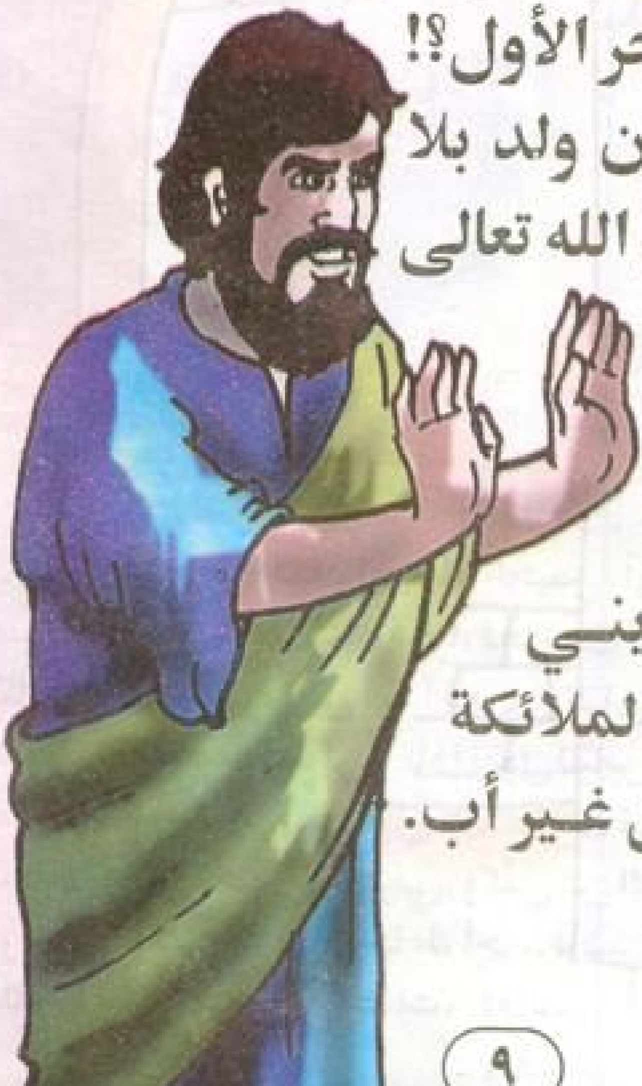
فقال لها: يا مريم، لا تخافي، فأنا رسول من الله لأهب لك غلاماً زكياً، فاستغربت من ذلك، ولكنه طمأنها، فإن الله يبشرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وأن الله تعالى سيجعل على يديه معجزات كثيرة. وقبل أن تتكلم مريم، نفخ جبريل عليه السلام في جيب مريم وهو شق الثوب الذي يكون في الصدر، فحملت فوراً.



وحملت مريم، لكنها لم تشعر بآلام كما تشعر الأمهات، وظلت في هذا الحمل تسعة أشهر، وقد لاحظ بعض الصالحين الحمل على مريم، وكان من بين هؤلاء رجل يقال له: يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن خال لها، فسألها: يا مريم، هل يكون زرع بلا بذر؟

فقالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول؟!

فقال لها: هل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم، فمن خلق الشجر الأول؟!



فقال لها: فهل يكون ولد بلا أب؟ فقالت: نعم، إن الله تعالى خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من آدم.

فقال لها: فأخبريني خبرك؟ فقالت: إن الملائكة بشرتني بعيسى من غير أب.



وكانت مريم تخرج من المحراب أيام الحيض، أو تخرج لطلب حاجة لها كطعام ونحوه، وأحست مريم أنها ستلد قريبا، فخرجت تسير في بيت لحم، حتى وصلت إلى مكان به شجر كثير، ليس فيه أحد من الناس، وجلست تحت جذع نخلة، فجاءها مخاض الوضع، فتذكرت ماذا تقول للناس، وماذا يقول الناس لها، فتمنت الموت، وقالت: (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا). فوضعت عيسى عليه السلام، وناداها من تحتها ألا تحزني، وكفي عن البكاء، وهزي جذع النخلة ينزل عليك رطب، لتأكلي منه، فإن جاءك أحد، فأشيري إليه أنك صائمة عن الكلام، فإن الله تعالى سيدافع عنك، فعلمت أن الله تعالى لن يضيعها.

واستسلمت مريم لأمر الله تعالى، فحملت ابنها، وضمته لصدرها، وكان الوقت عصراً، فعادت إلى المسجد، والسوق في طريق المسجد، والناس جلوس في هذا الوقت قد أنهوا تجارتهم، وجلسوا يتحدثون، فرأوا مريم تحمل طفلاً، فقال رجل منهم: طفل من هذا الذي تحمله مريم؟ وطار الخبر إلى أحبار اليهود، وقالوا لها: طفل من هذا يا مريم؟ إنه طفلك بالطبع، وكيف أتيت به وأنت من بيت طاهر شريف، لم يعرف عنه السوء والفحشاء؟ والتف الناس حولها، واشتد الكلام، فأشارت إليه، فعلموا أنها صائمة عن الكلام، ولكنهم قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟ فنطق عيسى عليه السلام، وقال لهم: «إني عبد الله، آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقياً».

لقد رأى اليهود أمامهم معجزة، ولكنهم لم يعترفوا بها، إنهم يخافون على أنفسهم وعلى مكانتهم.

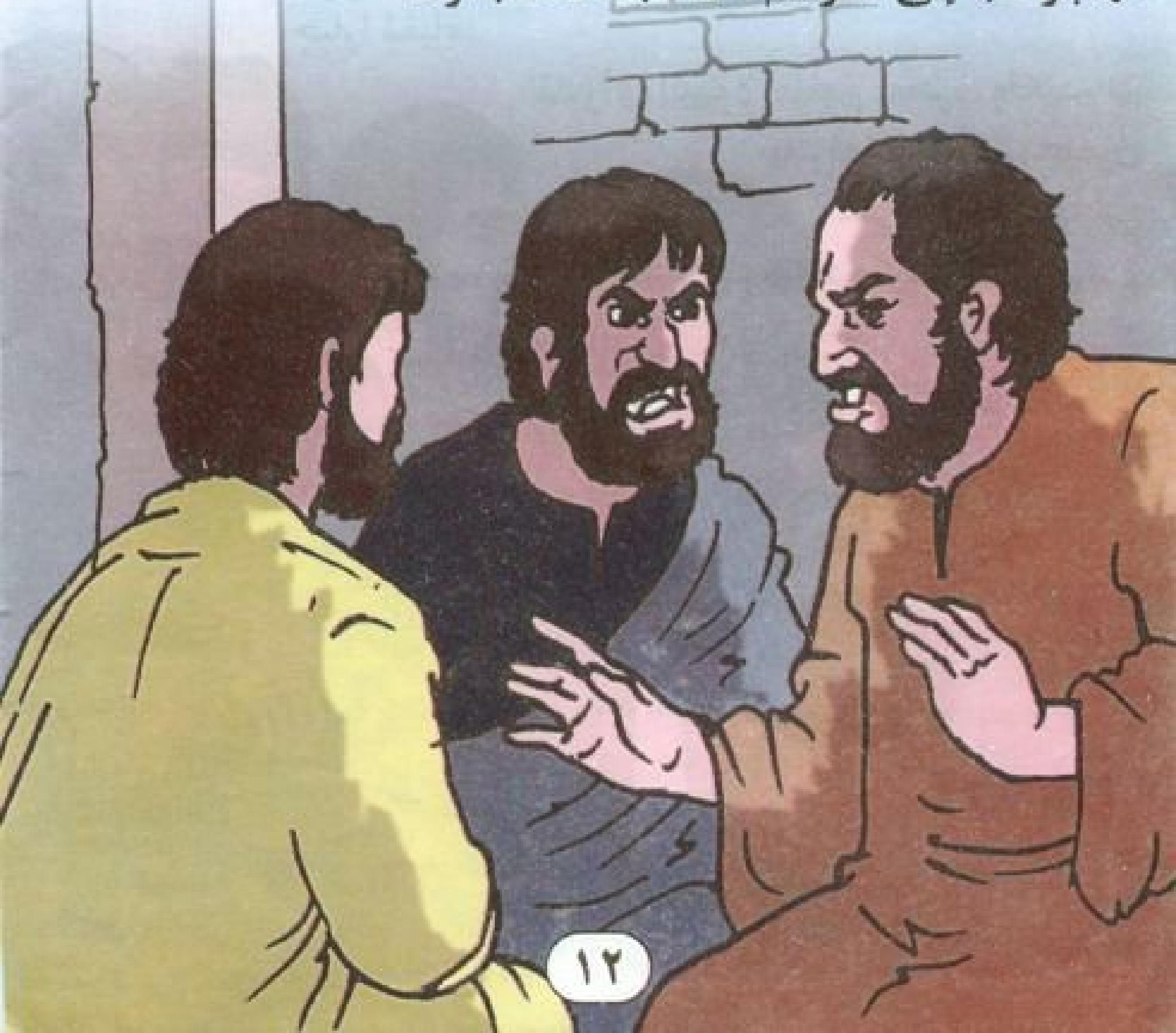


وجلس أحبار اليهود مع أنفسهم، فقال أحدهم: أرأيتم، لقد نطق الرضيع، إنه سيكون نبياً، ولن نستطيع أن نقول للناس: إننا وسيلتهم إلي الله.

وقال آخر: إننا لن نستطيع أن نأخذ منهم الأموال التي نغفر لهم بها الذنوب.

وقال ثالث: لابد من حل، لابد من قتل هذا الرضيع، قبل أن يكبر.

وذهبوا إلى الملك وأخبروه بأن ملكه سيزول، وخافت مريم على ولدها، فهاجرت به إلى مصر، ثم عادت بعد ذلك بفترة.

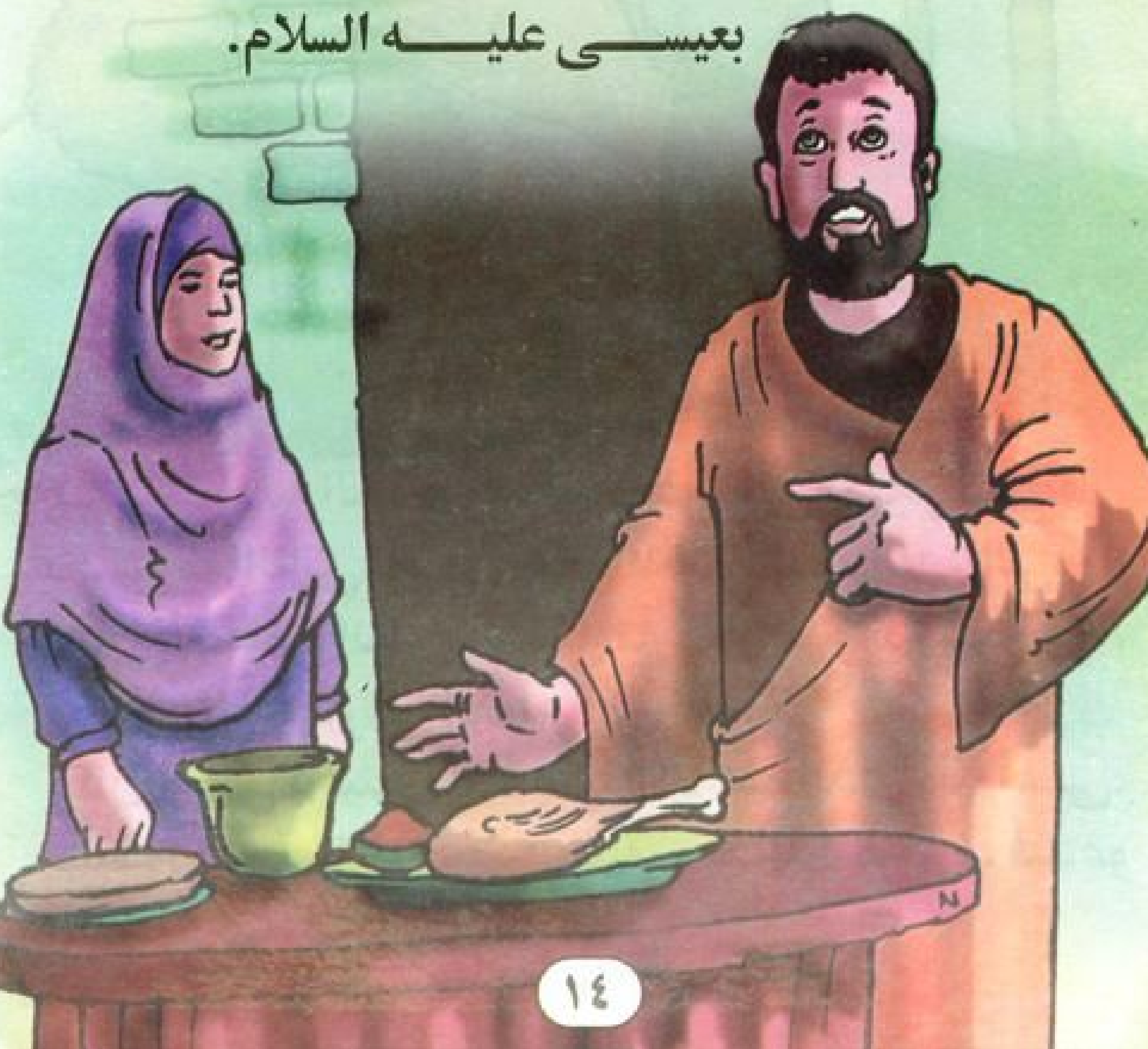




كبر عيسى عليه السلام، وقد أيده الله تعالى بمعجزات، فكان يجلس مع الناس، ويرون معجزاته التي أيده الله تعالى بها، فكان يأخذ من الطين، فيصنع ما يشبه الطير، ثم ينفخ فيها، فتكون طيراً يطير في الهواء بإذن الله.

وكان الناس يجيئون إليه بالولد الأكمه الذي ولد أعمى، فيمسح على عينيه، فيبصر بعينيه. ويجيئه المرضى، فيدعو الله لهم، فيشفيهم بإذن الله تعالى.

وظل عيسى عليه السلام يدعو بني إسرائيل، وآتاه الله تعالى الإنجيل، وعلمه التوراة، فكان لا يتوانى عن دعوة الناس إلى الحق بعد أن ضلوا، ولكنٍ أحبارِ اليهود كانوا يستهزئون به، ويقولون: إن كنت نبيا حقًا، فأخبرني ما الطعام الذي جهزته زوجتي لي؟ فيقول له: عندكم في البيت كذا وكذا، فيذهب الرجل إلى البيت فيجد ما أخبره به عيسى، ولكنهم مع كل هذا لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام.



وظل عيسى عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله، فآمن معه اثنا عشر رجلاً، حتى هؤلاء فقد أتعبوا عيسى، فقد طلبوا منه أن ينزل الله مائدة من السماء ليأكلوا، فدعا عيسى ربه، فاستجاب الله تعالى دعاءه، ولكن الله تعالى حذر من يكفر بها بعد نزولها، فإن الله تعالى سيعذبه عذابا شديداً، وأنزل الله مائدة من السماء فأكل الحواريون منها، فكانت لهم عيداً من أعيادهم.



وانتشر أمر عيسى عليه السلام، ومع أنه لم يؤمن له كثير من اليهود، ولكنهم ظلوا يتآمرون عليه، ففكروا في قتله، وفي اليوم الذي فكر فيه اليهود في قتل عيسى عليه السلام، أخبر عيسى الحواريين بمؤامرة القتل، وقال لهم: من منكم يصلب مكاني ويكون معي في الجنة؟ فقام شاب، فقال له: اجلس، لأنه كان صغير السن. ثم ردد السؤال، فقام هذا الشاب، فأسقط عليه شبه عيسى، ولما جاء جنود الملك الذي استمع لليهود، وأصعد الله عيسى إلى السماء من فتحة من البيت، وقبض الجنود على شبيه عيسى، وقتلوه وصلبوه.

وقد أخبرنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان، يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقيم العدل في الأرض ثم يموت، لأن كل إنسان مكتوب عليه الموت.

